يطالعك من قوله تمد منه اليدان ، فإن بناءها على المجهول يريك أن الأب المروع لم يكن يدرى ما يصنع ، وأنه ذاهل عن وعيه ، فيداه تمتدان من غير شعور ولا فهم لمعنى حركاته ووجهة خطواته . وعندى أن كلمة تمد أو تمتد فى مكانها هذا أبين عن هول الزلزال من الأبيات الأربعة ومافيها من نار تأكل ، وأرض تنفغر ، وأصوات تصيح . وهذا توفيق إذا جاء به الشاعر عن قصد فهو براعة ، وإذا جاء به عن غير قصد فهو إلهام .

ولنقرأ بعد هذه الفقرة ملاحظة العقاد الرائعة : إن كان فى هذه الأبيات مايؤخذ على حافظ فليس هو تلك الضرورة السعيدة ، وإنما هو اتهام للرحمة الإنسانية قد تنطوى عليه أبياته ، وقد يبدر من بعض الشعراء والكتّاب على غير نية ، فقد أراد الشاعر أن يمس فينا كوامن الإشفاق ، فوهم أننا لا نرثى المنكوبين إلا إذا كانوا طفلا صغيرا يشفق عليه كل مشفق أو فتاة هيفاء يحزن الناس عليها للجمال لا للرحمة ، أو أبا ينظر الناس بعينيه إلى أطفاله المفقودين ، ويحسون معه بحنينه المستطار .

وليس يحتاج المرء إلى كبير حظ من الإنسانية ليأخذ بيد الطفل الصغير ، ويتفجع للفتاة الهيفاء ، ويأسى لمصاب الأب الثاكل . فلئن كان حافظ قد صدق الوصف ، وأبلغ فى الصدق ، وأفلح فى تنبيه الشفقة ، وبسط الأيدى بالمعونة لقد كان يبلغ المدى فى الإحسان لو أنه استمد الوصف من حاسة عزيزة وقدرة فنية تنتزعان من الزلزال صورة منكوب غير عزيز على النفوس ، بل صورة حيوان هائم فى تلك القيامة ، فتهبانه من الشعر مالم يوهبه من عفو الرحمة ، وتفيضان عليه من الجمال والمودة مثل ما أفاضته الطبيعة على الطفل المهجور ، والفتاة الهيفاء ، والوالد المرعوب ، ونشعر حين نقرأ الوصف أن جمالا أعلى من جمال الطفولة والملاحة والأبوة يرتقى بنا إلى ذلك الأوج الرفيع . ذاك هو جمال العبقرية التى تعرف العطف حيث لا يعرفه سائر العاطفين .

ولكن مثل العطف الجماعية المستقرة فى الأذهان هى مثل الطفل والهيفاء والأب المحزون . يعول عليها حافظ ، ولا يأخذه فيها ريب ، ولو قد فطن حافظ إلى أن الشاعر يخالف أكثر مما يوافق ، وأنه يبحث عن فردية تعتق نفسها من أسر هذه المثل لكان له شأن ثان . ولكن الشعر فى أذهان كثيرين ديوان عام ، ومن شأن هذا الديوان أن يعزز ـ واعيا أم غير واع ـ عراقة الجماعة الممثلة فى الطفل والأب والفتاة . الجماعة